مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

ظاهرة انتشار الإسلام
وموقف بعض المستشرقين منها

تأليف: محمد فتح الله الزيادي

يعتبر الكتاب الذي نقوم بعرضه وتقديمه من الكتب العلمية الهامة التي صدرت تتناول الاستشراق بوصفه من أخطر الظواهر المضادة للإسلام، وكذا يناقش الكتاب الفكر الاستشراقي في الفتوحات الإسلامية وغير ذلك.

والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية كانت من أهم النقاط التي شغلت الفكر الاستشراقي، وقد كان لهذا الفكر وما يزال موقفه العام من تلك الفتوحات، إنه موقف الاتهام الباطل والحكم الجائر بأنها ظاهرة استعمارية، وليست فتوحات سعت لتحرير الإنسان وبناء الشخصية الإنسانية بناء كاملاً يستجيب لسنة الفطرة.

يضم الكتاب تصديراً للأستاذ محمد الدسوقي، ثم مقدمة علمية موجزة للمؤلف، وتمهيداً منه بعد ذلك ثم فصولاً ثلاثة وهي على التوالي:

تمهيد: عالمية الدعوة الإسلامية، وموقف المستشرقين من الدعوة الإسلامية.

الفصل الأول: تاريخ الاستشراق

الفصل الثاني: أسباب انتشار الإسلام

الفصل الثالث: آراء المستشرقين: عرض ومناقشة

واختتم الكتاب صفحاته بفهرس للمصادر والمراجع العربية، والأجنبية.

* * *

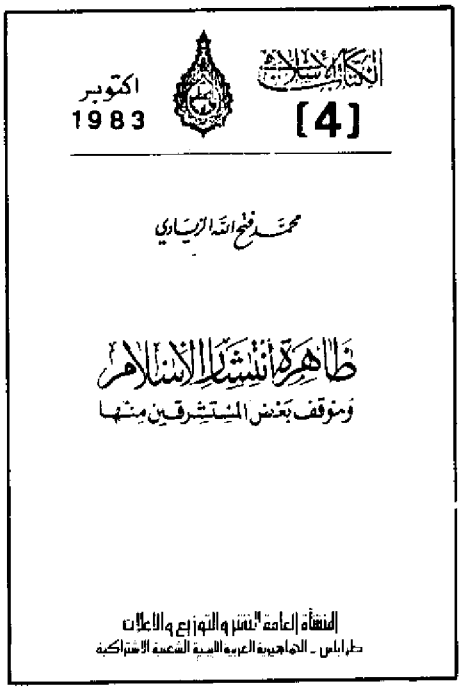

تناول الكتاب في التمهيد إلقاء الضوء على «عالمية الدعوة الإسلامية» ويثبت الكتاب أن الإسلام هو الدين النهائي الخاتم لجميع الأديان، كما أن نبيه محمداً ﷺ هو الخاتم لجميع النبيين وأن الدين الإسلامي يعتبر الغاية القصوى لكل الأديان التي سبقته.

ويتناول الكتاب بعد ذلك أن الإسلام لم يكن خاتماً للديانات السابقة فحسب، بل إنه انفرد بخاصية أخرى لم يتميز بها أي دين سابق له، وهذه الخاصية تتمثل في كونه ديناً عاماً أنزله الله سبحانه على رسول الله ﷺ ليقوم بتبليغه إلى الناس كافة.

ويستعرض المؤلف بعد ذلك كيف أن الإسلام دين عالمي، وأن عالمية الدعوة الإسلامية تنبع من العقيدة الإسلامية الشاملة والعامة.

ويتناول الكتاب «موقف المستشرقين من عالمية الدعوة الإسلامية» ويحدد مواقف كثير من المستشرقين الذين أنكروا عالمية الدعوة الإسلامية مثل المستشرق (وليم موير) و (كيتاني) و (كارل بروكلمان) ويقول المؤلف (إن المستشرقين حرصوا على دراسة الإسلام بتأثير من الكنيسة التي دفعتهم إلى هذه الدراسة ليكتشفوا عناصر القوة في الإسلام فيدعموا بها المسيحية، ويكتشفوا عناصر الضعف في المسيحية فيبثوها في الإسلام).

تحدث المؤلف في الفصل الأول تحت عنوان (الاستشراق) عن مفهوم كلمة الاستشراق وتطور دلالتها التاريخية فقال:

(إن كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق، وهي تعني مشرق الشمس، ومن ثم تدل الكلمة على الاهتمام بما يحويه الشرق من علوم ومعارف وسمات حضارية متنوعة، ويكون المستشرق هو الإنسان الذي وهب نفسه للاهتمام بما يدور في الشرق من مجالات مختلفة).

وعن «نشأة الاستشراق» يتناول الكتاب هذه النشأة التي تناولها العديد من المصادر، والتي اختلفت في تحديدها لبداية الاستشراق، فمن الباحثين من يرى أنه بدأ بمحاولات فردية منذ أواخر القرن العاشر

الميلادي، ومنهم من يرى أنه بدأ في بعض البلدان الأوروبية في القرن الثالث عشر الميلادي، أو ربما بعد ذلك بقليل، ومنهم من يرى أنه بدأ منذ الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 م.

ويشير المؤلف إلى تقسيم تاريخ الاستشراق إلى المراحل الآتية:

أولاً: مرحلة الانبهار بالحضارة العربية والاتجاه إليها.

ثانياً: مرحلة ما بعد الحروب الصليبية.

ثالثاً: مرحلة التنظيم الفعلي.

رابعاً: مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد استعرض الكتاب في كل مرحلة من المراحل السابقة تطورها التاريخي وبعض من أحداثها وأشخاصها.

أما «دوافع الاستشراق» فيثبت الكتاب أن بداية الاستشراق بدأت بدافع ديني محض، نشأ عن شعور المسيحية بالخطر نتيجة الانتشار السريع والواسع للإسلام، ثم ازداد هذا الشعور قوة إثر فشل الصليبيين في حملاتهم العسكرية ضد المسلمين.

ويحدد الكتاب دوافع الاستشراق كما يلي:

1 ـ الدافع الديني.

2 ـ الدافع الاستعماري.

3 ـ الدافع الاقتصادي.

4 ـ الدافع السياسي.

5 ـ الدافع العلمي.

يتناول الكتاب بعد ذلك أهداف الاستشراق، التي تتلخص في:

(أ) الاستمرار في محاولة إعطاء صورة مشوهة عن الإسلام كدين، وعن الشرق كحضارة، وعن العربية كتراث حتى يمكن تنفير المسلمين ممن اشرأبت نفوسهم لتفهم الإسلام واعتناقه، وفي تحقيق هذا الهدف خدمة كبيرة للكنيسة والحركة التنصيرية بصفة عامة.

(ب) تحطيم الإسلام من داخله عن طريق تشكيك المسلمين في كتابهم ودينهم وتراثهم حتى يمكن فصلهم عن دينهم.

(جـ) التشكيك الشامل في رسالة محمد ﷺ، والقرآن الكريم، والدين الإسلامي، وصحة السنة النبوية الشريفة، ومعظم جوانب التراث الإسلامي العلمي والحضاري.

ويركز الكتاب بعدها على «وسائل الاستشراق» المعروفة لتحقيق الأهداف السابقة، ويتطرق المؤلف إلى الحديث عن أصناف المستشرقين وهم ثلاثة أصناف:

1 ـ صنف كتب بروح حقد وكراهية مبتعداً عن المنهج العلمي، متشبعاً بروح الحقد الذي زرعته فيه الكنيسة.

2 ـ صنف كتب بروح علمية ، محاولاً إفادة قومه بما يكتب عن الحضارة العربية، ولكنه لم يعلن إسلامه.

3 ـ صنف كتب بروح علمية صادقة،

ودرس الإسلام دراسة عميقة حتى اهتدى إلى اعتناق الإسلام.

ويختتم الكتاب صفحات الفصل الأول بالحديث عن المستشرقين تحت عنوان «فضل المستشرقين» فيشير المؤلف بروح إسلامية علمية صادقة إلى الجانب الإيجابي لدراسات بعض المستشرقين والذي تمثل في إحياء جانب من التراث العربي والإسلامي والمحافظة على جانب كبير منه في المكتبات الأدبية، كما عني كثير من المستشرقين بجمع معظم نفائس المخطوطات العربية وعنوا بها عناية شديدة.

أما الفصل الثاني فهو بعنوان (أسباب انتشار الإسلام) تناول الكتاب ـ في المبحث الأول ـ الحديث عن حالة العالم قبل الإسلام، كشف فيه الكتاب عن الحالة الدينية للعالم قبل الإسلام، ثم استعرض المؤلف الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعالم.

يحدد الكتاب بعد ذلك فضائل الإسلام ومزاياه العظيمة من أنه دين الفطرة، والدين الذي يقوم على الإيمان المطلق بالوحدانية، والمساواة بين الناس. ثم أشار الكتاب إلى المنهج النبوي الفذ في الدعوة إلى الله تعالى على الرغم من التعرض للاضطهاد والعذاب المستمر.

وفي المبحث الثاني ـ من الفصل الثاني ـ يتناول الكتاب الحديث عن «الحرب في الإسلام» وأسباب انتشار الإسلام، وقد قصد المؤلف من هذا المبحث الرد بمنهج علمي على المستشرقين الذين طالما زعموا ـ وما زالوا يزعمون ـ أن الإسلام دين حرب وأنه أعمل السيف في رقاب الناس؟؟

يبين الكتاب أن كثيراً من آيات القرآن الكريم تقر مبدأ الأخوة الإنسانية، هذه الأخوة التي تقتضي بداهة التعايش السلمي والتعاون على البر والخير والابتعاد عن الحقد والكراهية. كما بذل المؤلف جهداً كبيراً وهو يتحدث عن السلام في الإسلام والقرآن الكريم، وكيف أن (السلام) ورد ذكره في مائة وأربعين آية بينما لم يرد ذكر الحرب إلا في ست آيات فقط، وإن القرآن الكريم حدد رفض الإسلام لكل الدوافع والأغراض التي كانت تدعو إلى الحروب وتثير الفتن، فرفض الإسلام الحرب التي كانت تقوم من أجل العصبيات الطائفية أو العرقية، ورفض أيضاً الحروب التي تثيرها نزعات دينية سببها الاختلاف في العقيدة أو الإكراه عليها، ورفض الإسلام أيضاً الحروب التي تثار من أجل كسب مادي أو نفع اقتصادي.

ويتناول الكتاب الحديث عن الجهاد، ويستعرض الكتاب ما تعرض له رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة من اضطهاد وتعذيب سنوات طويلة حتى وصل بهم الأمر أن تركوا الديار والأهل والأموال، واستقروا في المدينة التي حمتهم من الاضطهاد والتنكيل. وحين اشتد عود الجماعة المسلمة

وكثر عددهم أمرهم الله تعالى أن يدفعوا الظلم عنهم، ويفسحوا الطريق أمام الدعوة الإسلامية لتصل إلى الناس أجمعين.

والأسباب التي أجاز فيها القرآن الكريم حمل السيف والقتال:

1 ـ دفع الظلم ورد أي اعتداء على الإنسان سواء كان ذلك في نفسه أو أهله أو ماله.

2 ـ دفع الظلم عن الآخرين، أي نصرة المظلومين والمستضعفين في الأرض.

3 ـ شرع الإسلام الجهاد وحثَّ عليه من أجل فسح المجال أمام العقيدة حتى تصل إلى الشعوب.

4 ـ أوجب الإسلام نوعاً من الحروب التي تقوم على فض الخلافات والمنازعات وإقرار السلم بين الجماعات المؤمنة.

5 ـ واقتضت قواعد الإسلام في الجهاد تبليغاً لدعوة الله، أن يبدأ المسلمون بعرض دينهم على غيرهم فإن آمنوا به رغبة واختياراً أصبحوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وإن أبوا أن يدخلوا في الإسلام طلب منهم توقيع معاهدة سلام ليواصل المسلمون سيرهم إلى غيرهم من الأمم في أمن من الغدر والخيانة، وإن رفضوا ذلك يتعين جهادهم.

6 ـ قتال البغاة وناكثي العهد وخائني المواثيق.

7 ـ تأديب الخونة والمتآمرين والخارجين على القانون ونظام الدولة.

ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك غزوات النبي ﷺ، ويحلّل المؤلف ويصنف هذه الغزوات، ثم يعرض إلى عهود الخلفاء الراشدين ويستعرض وصاياهم رضوان الله عليهم لقادتهم بالالتزام بتعاليم الدين الحنيف.

أما الفصل الثالث والأخير فهو بعنوان (آراء المستشرقين: عرض ومناقشة) ويسجّل المؤلف في بداية هذا الفصل انه لصعوبة حصر آراء المستشرقين في موضوع انتشار الإسلام، فقد قام المؤلف بتصنيف آراء عدد من المستشرقين يبلغ عددهم ثلاثين مستشرقاً، ينتمون لما يقرب من عشر جنسيات.

يتناول المؤلف ـ في تدخل تاريخي موضوعي ـ آراء طائفة من المستشرقين وفقاً لاتجاهاتها وتعليلها لظاهرة انتشار الإسلام مثل المستشرق (ماكدونالد) الذي يتهم الإسلام بأنه دين انتشر بالقوة واعتمد على السيف، ومعه المستشرق (هاري اليس) و(واشنجتون إيرفنج) و(جون هيجل) و(نلسون) و(غيومان لوسيتر) و(ج. بلزاك).

ويتناول الكتاب بعد ذلك اتجاه بعض المستشرقين الذين يرون أن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول لكافة

الفتوحات الإسلامية، ويستعرض أسماء المستشرقين الذين تبنوا هذا الاتجاه وأفكارهم وهم (توماس أرنولد) و (ستانلي لين بول) و (دوزي) و (فيليب حتي).

ويواصل المؤلف استعراض اتجاهات بعض المستشرقين الذين يرون أن الأفواج التي آمنت بالإسلام لم تكن موقنة بصحة هذا الدين، وإنما حملتها ظروف شتى على اعتناقه (يقصد بأصحاب هذا الاتجاه المسيحيين في العهد العثماني) ويتبني هذا الاتجاه المستشرق (توماس سميث) و (مارشال هودجسون) والمستشرق الخبيث (فيليب حتي).

ويختتم المؤلف آراء المستشرقين واتجاهاتهم، فيعرض للاتجاه الرابع الذي يرى أن فكرة الجهاد الإسلامي هي وسيلة لوحدة الأمة الإسلامة وأنها مع هذا خطر على الأمم الأخرى، وأنها لا تتناسب وظروف العصر، ويمثل هذا الاتجاه المستشرق الإنكليزي (أندرسون).

وبعد أن استعرض المؤلف اتجاهات المستشرقين المختلفة حول الفتوح الإسلامية والإسلام وانتشاره، تطرَّق إلى الرد العلمي المدعم بالوقائع التاريخية الصحيحة، والأدلة العلمية الموثقة، والمقارنة التاريخية الرصينة على أصحاب هذه الاتجاهات.

ويرد الكتاب على أصحاب الاتجاه الأول الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف والقوة، فيثبت الكتاب بالنصوص القرآنية والوقائع التاريخية كيف أن الجهاد في المفهوم الإسلامي وسيلة من وسائل تمكين الإنسان من العيش حراً كريماً يتمتع بإرادة كاملة ومسؤولية مطلقة، ويبين الكتاب كيف أن المسلمين ظُلموا واضطُهدوا وأُبعدوا عن ديارهم وسُلبت أموالهم دون أن يرتكبوا ما يوجب ذلك. فأي جريمة إذن في أن يحمل المسلمون سيوفهم ويدفعوا الظلم والعدوان والبغي الذي تعرضوا له؟ كما يتناول الكتاب أن الطابع العام لغزوات الرسول ﷺ كان دفاعاً عن النفس وليس اعتداء، كما يتناول الكتاب فلسفة الجهاد عند الخلفاء الراشدين وكيف أنهم رضوان الله عليهم التزموا بتعاليم الإسلام. ويسرد الكتاب بعض الأمثلة التاريخية التي تبين أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ويعقد الكتاب بعض المقارنات ـ الموجزة وكان في الإمكان التوسع فيها ـ التي تثبت أن المسيحية هي التي حملت السيف، وهي التي ذبحت به أعناق عشرات الآلاف من المسلمين وان المسيحية جعلت السيف، وسيلتها الأولى والأخيرة لنشر المسيحية.

ويناقش الكتاب الاتجاه الثاني للمستشرقين الذي زعم بأن العامل الاقتصادي كان المحرك الأول لكافة الفتوحات الإسلامية، ويستعرض المؤلف بداية نظرة الإسلام إلى المال وكيف أن الإسلام بيّن خطورة فتنة المال وأن المال شيء

خلق للانتفاع المؤقت الذي به تسير أمور الحياة الدنيا، وقد قرر القرآن الكريم أن المال كله لله، وأن الأموال رغم ما فيها من متعة الحياة الدنيا إلا أنها تبقى فتنة لمن لم يزهد فيها.

ويحلّل الكتاب بعد ذلك المواقف العظيمة لرسول الله ﷺ وكيف أنه رفض الدعوة التي وجهها إليه زعماء قريش حينما عرضوا عليه المال والجاه والسلطان ليترك دين الله والدعوة إليه، وكيف أن الرسول الكريم العظيم ﷺ رفض هذا كله فكيف يمكن أن يقال ان الفتوحات الإسلامية هدفها المغنم وصاحب الدعوة نفسه قد عُرضت عليه المغريات من كل جانب ولكنه أبى إلا أن يعيش فقيراً وأن يحيا حياته كلها من أجل إبلاغ الدعوة إلى الناس كما أمره الله رب العرش العظيم.

ويستكمل المؤلف مناقشة افتراءات المستشرقين التي تقول ان الكثير من أهل الذمة إنما دخلوا الإسلام فراراً من دفع الجزية. ويقرر المؤلف أن هذه الافتراءات تفتقر تماماً إلى الدليل وتحتاج إلى إثبات، حيث أن الجزية أخذت من أهل الذمة جزاء ما يقدم لهم من خدمات، وأن المسلمون قد ردّوا لأهل الذمة ما أخذوه منهم في بعض الوقائع التاريخية حين علموا أنهم غير قادرين على حمايتهم.

ويناقش الكتاب الاتجاه الثالث للمستشرقين الذي يقول ان كثيراً من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في العهد العثماني اعتنقوه وهم غير موقنين به.

يرد المؤلف على هذه الافتراءات بإيراد وقائع تاريخية تثبت أن المسيحيين في ظل الحكم العثماني كانوا على درجة كبيرة من الاحترام والتقدير وأنهم وصلوا إلى المراكز التي جعلتهم يحتلون المناصب الهامة، بصرف النظر عن عدم قدراتهم للوصول إلى هذه المناصب، وبصرف النظر عن تعصبهم المقيت الذي سجل التاريخ عشرات الحوادث ضد المسلمين عن هذا التعصب.

ويناقش الكتاب الاتجاه الرابع لبعض المستشرقين الذين يرون أن الجهاد الإسلامي خطر على الامم الأخرى وأنه يتنافى مع ظروف العصر. يرد المؤلف على هذا الاتجاه ـ وأصحابه ـ بأن الجهاد شُرع في بادىء الأمر لرد الظلم والاعتداء على الجماعة البشرية المؤمنة من جماعات بشرية أخرى كافرة، ثم بيّن الله تعالى للمسلمين أنه لا يحل لهم أن يقاتلوا أحداً إلا من بدأ بمقاتلتهم والاعتداء عليهم، ثم أبيح للمسلمين أن يقاتلوا من أجل نصرة المظلومين والدفاع عن المضطهدين حتى لا تكون هناك فتنة تهدد الفرد في حريته.

هذا هو فرض الجهاد في المنظور الإسلامي فهل في ذلك ـ كما يتساءل مؤلف الكتاب ـ ما يخل بروح العصر كما يدّعي المستشرق الإنكليزي (أندرسون)؟

وينعي المؤلف على المدنيات والدساتير الحديثة التي تقول انها تقدس وتصون حرية الفرد وتضمن له حقوقه، في حين أن (المسلم) يضطهد في بقاع كثيرة من العالم، في فلسطين ولبنان والفلبيين وأمريكا وجنوب أفريقيا وغير ذلك.

ثم يلقي الكتاب الضوء في مقارنة موجزة بين الجهاد وميثاق الأمم المتحدة، وكيف أن الجهاد تشريع إلهي فرضه الله تعالى، وميثاق الأمم المتحدة تشريع بشري وضعته عقول بشرية قاصرة. وإن ميثاق الأمم المتحدة جاء كرد فعل للحروب الواقعة في تلك الفترة. أما الإسلام فهو يحرم الحرب التي تقوم من أجل استعمار الشعوب وسلب خيراتها. وكيف أن الإسلام أعلن - قبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقبل ميلاد المنظمات الدولية عن حقوق الإنسان.

وينهي الكتاب صفحاته القيمة بإيراد شهادات المنصفين من المستشرقين الذين قالوا كثيراً من كلمة الحق عن الإسلام مثل (توماس كارلايل) في كتابه: الأبطال، ومثل (جيمس متشنر) والمستشرقة المعروفة (لورافيشيا فاغيلدي) ومثل (غوستاف لوبون) ومثل (الكونت هنري دي كاسترو).

ملاحظات عامة

* على الرغم من أنَّ الكتاب الذي قمنا بعرضه يتكون من 328 صفحة من القطع الصغير، إلا أنه جاء ضوءاً باهراً على الطريق لفضح الاستشراق بأسلوب علمي رصين، وكشف الأفكار الاستشراقية في الفتوحات الإسلامية وفضح مزاعم كثيرة من آراء وأفكار المستشرقين حول الإسلام، ودعوته، ورسالته، ونبيه، وفتوحاته.

* بالنظر إلى فهرس المصادر والمراجع التي استند إليها الكاتب، فإنه صدرت بعد ذلك مصادر ومراجع حديثة (صدرت بعد طبع الكتاب) عن الاستشراق والمستشرقين وأفكارهم وكتبهم ودعاويهم الزائفة المستمرة. ويمكن للكاتب أن يتوسع في الطبعة الثانية من الكتاب إنْ شاء الله لإلقاء المزيد من الأضواء على دراسات وأفكار المستشرقين، وتحليل مدارسهم واتجاهاتهم الفكرية، واستعراض كثير من مؤلفاتهم التي تتناول موضوع الكتاب.

* في الفصل الثالث من الكتاب ناقش المؤلف آراء المستشرقين: عرض ونقد، وأورد المؤلف آراء المستشرقين حسب اتجاهاتهم الأربعة، ثم تولى مناقشة هذه الاتجاهات بعد ذلك اتجاهاً اتجاهاً وكنا نرى أن المؤلف كان له أن يعرض الاتجاه الأول للمستشرقين ثم ينقده ويناقشه ويحلله وهكذا... فهذا - في رأينا - يحقق مزيداً من الترابط الموضوعي والتركيز المتكامل للقارىء.

والملاحظات السابقة لا تقلل نهائياً من مكانة الكتاب والمؤلف. فالكتاب من الكتب العلمية الهادفة التي تتصدى للاستشراق،

وهـو خـطوة علميـة عـلى طـريق الفكـر الإسلامي المستنير الذي يتصدى لأعـداء الإسلام بالدليل والبرهان العلمي والتوثيق، نرجو من الباحثين والكتـاب أن يواصلوا المسيرة لكشف الاستشراق وفكره ومدارسه وافتراءاته الملوثة.

ونضم صوتنا إلى صوت المؤلف في أن تتبنى جامعة الفاتح طرح فكرة إنشاء دائرة معارف إسلامية قلباً وقالباً، يكتبها كتاب مسلمـون ومن جميع الأقـطار الإسـلاميـة المختلفة، حتى تعطي صورة حية للإسلام تمحـو تلك الصورة التي عـرضتها دائـرة المعارف الإسلامية التي كتبها المستشرقون.

معالي عبد الحميد حمودة
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
جمهورية مصر العربية